استسلام وجهاء أم درمان

The Capitulation of Omdurman Notables

روبرت كرامر Robert S. Kramer

◇◇◇◇◇

في هذا المقال قام بروفسيور روبرت كرامر (أستاذ تاريخ الشرق الأوسط وأفريقيا بكلية سانت نوربينت بولاية وسيكنسون الأمريكية، والمجيد للعربية) بترجمة رسالة بعث بها بعض وجهاء مدينة أم درمان (وعددهم ٦٨ فردا، أورد أسمائهم وتوقيعاتهم جميعا) بعيد هزيمة جيش الأنصار بقيادة الخليفة عبد الله (يوم ٢/ ٩/ ١٨٩٨م) إلى الجنرال كتشنر سردار الجيش المصري. ونشر المقال في المجلة النرويجية Sudanic Africa في عددها الثالث والصادر في عام ١٩٩٢م.

وعلى الرغم من أن الكاتب بدأ مقاله بأن هذه الرسالة (والمحفوظة الآن في جامعة دارم البريطانية) تمثل "وقتا غير سعيد" في تاريخ السودان، وأن بعض السودانيين المعاصرين يفضلون أن ينسوا (أو يتناسوا) تلك الأيام وما جرى فيها، إلا أنه لا يرى في تلك الرسالة أي سبب للحرج أو الأسف، إذ أن القوة العسكرية للجيش الغازي كانت متفوقة بصورة ساحقة، وقامت بفرض سيطرتها في وقت وجيز لم يترك مجالا للشك في عقل ووجدان أي مواطن سوداني في المدينة أن عهد الخليفة عبد الله قد أدبر، وأن نظاما جديدا قد بدأ لتوه في تولي مقاليد الحكم في البلاد. واختار بعض السودانيين الخروج من المدينة في رفقة الخليفة، وتفادوا بذلك اعتقال الغزاة لهم، بينما بدا أن غالب من بقى من سكان المدينة تخلوا عن ولائهم للمهدية، وحتى بكل ما كان يذكرهم بعهدها من جبب مرقعة وغيرها. وظلوا بالمدينة في انتظار ما سيفعل الله بهم في العهد الجديد. ويعد كاتب المقال رسالة

وجهاء أم درمان لسردار الجيش المصري شهادة ودليل على غريزة حفظ النفس وهي غريزة إنسانية متأصلة.

وتمثل الأحداث التي وقعت في أم درمان بعيد انتهاء معركة كرري خلفية مهمة لرسالة وجهاء المدينة لكتشنر. ففور دخول الجيش الغازي بقيادة كتشنر للمدينة استسلم له عدد من سكانها، وأعلن كتشنر عفوا عاما ضمن فيه – بحسب ما جاء في المقال– سلامة سكان أم درمان (ولكنه لم يأت على ممتلكاتهم بذكر). وعلى مدى ثلاثة أيام عقب دخول الجيش الغازي للمدينة قام جنوده باستباحتها ونهب ممتلكات سكانها دون أي تدخل أو اعتراض من قادتهم، وربما برضائهم.

وزاد الطين بلة أن بعض الجهادية (وهم الجنود السابقين الذين عملوا في خدمة جيش المهدي والخليفة – وقبل ذلك في خدمة الحكم التركي المصري– وغالبيتهم من ذوي الأصول النوبية والجنوبية) كانوا قد استغلوا حالة الفوضى وانعدام الأمن التي أعقبت دخول الغزاة للمدينة فطفقوا في تسوية حساباتهم مع أعدائهم في المدينة بصورة دموية عنيفة. وغضت سلطات الجيش الغازي طرفها عن تلك الممارسات الانتقامية، إذ أنها كانت تأمل في استيعابهم لاحقا في جيشها. وذكر كاتب المقال أنه أفرد فصلا كاملا لمناقشة دور الجهادية بأم درمان في عهد المهدية في كتاب له بعنوان "مدينة مقدسة على النيل".

وأورد الكاتب أيضا ما نشره أرنست بينيت المراسل الصحفي البريطاني المرافق للجيش المصري البريطاني في مقال له في عام ١٨٩٩م عن أن كل جرحى جيش الخليفة في كل المعارك التي خاضوها مع الجيش المصري البريطاني كانوا يقتلون على الفور. وذكر ذلك الصحفي في مقاله أن عمليات النهب والسلب التي قام بها الجيش الغازي في أم درمان لثلاثة أيام متو لية لم يقم بها الجنود السودانيون فقط، بل شاركهم فيها الجنود البريطانيون أيضا. وبالطبع أنكر المسؤولون البريطانيون ذلك الزعم بشدة في بيان رسمي في البرلمان.

ولم تذكر رسالة وجهاء أم درمان لكتشنر شيئا كثيرا عن تلك الأحداث التي جرت في الأيام الثلاثة التي أعقبت دخول الجيش الغازي للمدينة، ولكنهم طلبوا في رسالتهم من كتشنر "إعادة الرقيق الفارين لمالكيهم حتى تبدأ عجلة الاقتصاد في الدوران من جديد" أو كما قالوا!

ولا يعرف الكثير عن الظروف التي كتبت فيها الرسالة أو تاريخ كتابتها على وجه التحديد، إلا أن هنالك ترجمة إنجليزية غير دقيقة لتلك الرسالة كان تاريخها هو ٢/ ١٠/ ١٨٩٨م (أي بعد نحو شهر من معركة كرري). ولا يعقل بالطبع أن ينتظر وجهاء أم درمان لشهر كامل قبل أن يلتمسوا من السردار إرجاع ممتلكاتهم إليهم، خاصة وأنهم كانوا قد قدموا تلك الرسالة إنابة عن كل سكان أم درمان، وبعض هؤلاء كانوا من أحرار سكان المدينة من ذوي البشرة الداكنة، الذين اعتقلهم الجنود الغزاة بغرض تجنيدهم قسرا في الجيش الحكومي باعتبارهم من عبيد المدينة! ولا أحد يعلم على وجه اليقين إن كان السردار موجودا بأم درمان في يوم كتابة الرسالة المترجمة (٢/ ١٠/ ١٨٩٨م). فبعض الوثائق تشير إلى أن السردار كان قد غادر المدينة على ظهر باخرة على النيل الأبيض لفشودة في يوم ٢٤/ ٩/ ١٨٩٨م، ثم آب بعد ذلك إلى القاهرة ومنها إلى لندن. وربما تكون تلك الرسالة قد قدمت لكتشنر قبل سفرة لفشودة في العاشر من سبتمبر.

ولا ريب أن تلك الرسالة كانت قد كتبت على عجل، كما هو متوقع في تلك الأيام العصيبة. وقام ٣٤ من الموقعين بختم الرسالة بأختامهم الشخصية، بينما وقع الآخرون بأسمائهم مسبوقة بكلمة: "بخطي". وقام آخر (وهو الحاج....) بوضع ختمه الشخصي مرتين، مرة في السطر الثاني، ومرة أخرى في السطر السادس (كما يتضح في صورة الرسالة التي أرفقها الكاتب في نهاية مقاله). ويصعب –في نظر الكاتب– في ظروف تلك الأيام تخيل أن كل من وقعوا على تلك الرسالة (وعددهم ٦٨ فردا) قد فعلوا ذلك في جلسة واحدة. ولا يعلم على وجه الدقة من هو الذي

قام بصياغة الرسالة، ولكن من المقطوع به أن من قام بترجمتها للإنجليزية لم تكن تلك اللغة هي لغته الأم، ويزعم الكاتب أنه قد يكون ضابطا سوريا أو مصريا من الذين أتوا مع الجيش الغازي. وكان من ضمن الموقعين على تلك الرسالة رجال من علية القوم وكبار السن (حدد الكاتب في مقاله عددا من الأسماء) يصعب تخيل أنهم يرضون بالتوقيع مع بقية الموقعين على تلك الرسالة. وهنالك أيضا أسماء وردت في الترجمة الإنجليزية رغم أنها لم تظهر في الرسالة الأصلية (مثل اسم سكرتير الخليفة الخاص، والذي لا يعقل أن يكون – بالنظر إلى خلفيته– من كتاب أو موقعي تلك الرسالة). ويعتقد الكاتب أن الأسلوب البيروقراطي الذي صيغت به الرسالة يشير إلى أن كاتب الرسالة ربما كان أحد كتاب الخليفة السابقين.

ويعتقد الكاتب أن الرسالة تلقي بكثير من الأضواء على المجتمع السوداني في نهاية عهد المهدية وتشير إلى اعتماد اقتصاده على عمل المسترقين في الزراعة وغيرها، وتشير إلى بدء تكوين حقيقة سياسية جديدة في البلاد، خاصة وأن الموقعين على الرسالة سموا أنفسهم "أصدقاء الحكومة" في مقابل أعدائها "الدراويش". ومن اللافت للنظر إلى أن الرسالة تصف "الجهادية بأنهم "رقيق الدراويش"، وتطلب إعادة "توابع" السكان إليهم (والمقصود بالتوابع هنا بالطبع هم الرقيق) لمواصلة "تطوير البلاد"، وهو جانب كان يجد التعاطف مع النظام البريطاني – المصري الجديد.

ويؤكد الكاتب على أن الموقعين على تلك الرسالة كانوا يشكلون طيفا واسعا من سكان أم درمان. فمنهم من كان يعمل في خدمة العهد المهدوي من مستشاري الخليفة والقضاة وأمناء بيت المال وغيرهم من كبار تجار المدينة ورجال الدين وزعماء القبائل (وذكر الكاتب أمثلة لكل طائفة من هؤلاء). وكانت أصول الموقعين – مع استثناءات قليلة– من مناطق السودان النيلي، أو من ذوي الأصول المصرية.

ويرى المؤلف أن اختيار الموقعين ليمثلوا طيفا واسعا من كافة سكان أم درمان كان عملا سياسيا مقصودا للتأكيد على أن مؤيدي الخليفة هم من قبيلة واحدة.

وأورد الكاتب في ختام مقاله صورة الرسالة الأصلية بأختامها وتوقيعاتها (وبنسخة مطبوعة منها)، وبالترجمة الإنجليزية الخاطئة التي قدمت للسردار، ثم أورد في النهاية ترجمته الشخصية للرسالة. وهذه هي الرسالة المطبوعة باللغة العربية كما وردت دون تغيير:

سردار الجيش المصري سعادتلوا أفندم حضرتي:

نعرض للجناب أن السبب الوحيد في المساعدة لأهالي السودان على إزالة ما حصل لهم من الضرر والضعف والاحتياج إنما هو بواسطة التوابع الذين معهم والآن دخل على جميعهم ما شوش الأفكار بأسباب تعديات بعض عساكر الحكومة والمتحدين معهم من رقيق الدراويش بالهجوم على المنازل ومحلات الحريمات بدعوى التفتيش على العبيد الذكور وفي طي ذلك ينهبون كلما عرض لهم من الخدامات والأحرار الغالب عليهم السمرة وخلاف ذلك حتى انسلب أغلب ما بيد الأهالي وصاروا في حيرة وتشويش مع أن الغالب الذين أخذوهم غير صالحين للعسكرية وإنما أغروهم عليهم المتحدين معهم للأغراض النفسية بدون ملاحظة لمصالح الحكومة بل لهوى النفس والأغراض ليدوروا في خلال أورط العساكر بصفة العساكر لإغراء العساكر بالتشويش على الرعية وسلب راحتهم وفي السابق لما كانت الحكومة أكدت في مادة الرقيق امتنعت التجارة فيه فقط بالكلية ولم يحصل التعرض للتوابع الذين بأيديهم إلا من تضرر للحكومة من أربابه ومعلوم لسعادتكم أن هذا أول فتوح والرعية في تعب شديد من تعديات الدراويش عليهم وفي تشوق كبير لشمول نظر الحكومة عليهم بما يزيل عنهم ما كان حاصلا بهم وأن جميع من وجد الآن في أم درمان هم أصدقاء الحكومة المتشوقين إليها وما كان من

فضولهم بها مع الخليفة إلا بصفة الأسرى والمساجين وكل من كان محاربا للحكومة فقد هلك في الحرابات وباقيتهم فر مع الخليفة لجهات الغرب وأن عمارة الوطن بالسواقي والمزارع لا تتيسر لأهاليه إلا بمساعدة التوابع وبدون ذلك لا تتم الراحة في المعايش لأحد من أهالي السودان ولا تتقدم حالتهم وتتحسن حتى يبلغ ساير الأقطار زوال ما كان حاصلا بهم من الأتعاب وضيق المعايش عن شفقة سعادتكم العمومية. فلهذا بادرنا بتقديمه عن لسان الجميع ملتمسين لقبوله على حالة تطمنهم وتأمنهم وترفع عنهم الحالة الحاصلة عليهم. وإذا كان لازم للحكومة عساكر فبعد استتباب الراحة لهم إذا صار طلب القدر اللازم من عموم الجهات فممكن الاستحصال على المطلوب بحالة الراحة التي لا تشويش فيها على أحد وتمشيه مصلحة الحكومة السنية وفق مرغبوها ومع ما أوضحنا الأمر مفوض أفندم تحريرا.

التوقيعات